ورغم ما كانت تتمتع به المدينة المقدسة من حصانة ومناعة على الصعيدين المادي والروحي كمدينة منيعة بأسوارها وتحصيناتها، قوية بمركزها الديني في العالم المسيحي كله، فإن مصيرها قد تقرر، بصورة حاسمة، بعد هزيمة الصليبيين في حطين (4 تموز 1187م) حيث بدأت معاقلهم تتساقط، أمام القائد المسلم صلاح الدين، الواحد بعد الآخر.

2 ـ مقدمات التحرير: صلاح الدين واستراتيجية التوحيد للتحرير

أيقن صلاح الدين الأيوبي أن من أهم عوامل انهيار المقاومة الإسلامية أمام الغزو الصليبي هو تشتت المسلمين واختلافهم، وأن الرد الوحيد على الهجمة الصليبية هو وحدة المسلمين، فسعى، منذ أن تسلم الحكم (عام 564هـ ـ 1169م) إلى تنفيذ استراتيجية واضحة ومحددة، هي توحيد المسلمين أولاً لتحرير بلادهم من الحكم الصليبي فيما بعد.

وكان المسلمون، عشية تسلم صلاح الدين الحكم في مصر، موزعين بين أمويين يتنازعون فيما بينهم ما تبقى لهم من سلطة متهاوية في بلاد الأندلس، ومن دويلات ضعيفة ممزقة في أنحاء المغرب العربي، وعباسيين يشهدون اضمحلال سلطانهم الذي اقتصر على عاصمة ملكهم بغداد، إذ نازعتهم، على ذلك السلطان، دولة فاطمية انطلقت من مصر والمغرب العربي (تونس)، إلى الشام، ثم بدأت تنحسر، بدورها، حتى انتهت، في مصر، بظهور صلاح الدين الأيوبي بعد موت آخر خليفة فاطمي (عام 567هـ ـ 1171م)، بينما توزعت بلاد الشام قوى متناحرة، بدورها، فكان فاطميو مصر في الجنوب، وسلاجقة الأتراك في الشمال، وبينهما، وفي ظلهما، مقاطعات يحكمها أمراء وزعماء، متناحرون ومنقسمون شراذم قبلية وطائفية ومذهبية، وقد انحاز بعضهم إلى الصليبيين وحالفوهم، بينما قاومهم آخرون وحاربوهم، وكان أهم هؤلاء: الأتابكة الزنكيون، ثم الأيوبيون.

في هذه الأثناء، كان الصليبيون قد نجحوا في اجتياح بلاد الشام بسهولة ويسر، مستفيدين من تشرذم المسلمين وتمزقهم، فأقاموا، في أرجائها، ممالك وإمارات هي: إمارة الرها (في بلاد الأتراك السلاجقة)، وإمارة انطاكية (في